

إشكالية القبيلة في الدراسات الاجتماعية المغرب العربي أنموذجا.

د. محمد مكحلي
جامعة سيدي بلعباس

الملخص: يمثل الزخم الكبير من الدراسات والوثائق والتقارير المنجزة خلال فترة الاستعمار في بلاد المغرب مادة هامة لدراسة الواقع الاجتماعي بمختلف أبعاده كان حضور المادة القبلية بارزا وبخاصة في الجزائر والمغرب وقد تم التركيز فيه على القبائل البربرية مما أفضى إلى التساؤل حول أهداف هذا التخصيص لقد تأرجحت دراسة القبيلة بين الدقة والضعف إلا أن دراسة البنية الدينية والممارسات الثقافية كانت تجيد عن التصوير الموضوعي هذا ما سنتناوله هذه الورقة العلمية مع التطرق إلى أهم الأعمال ومرتكزاتها الإيديولوجية الانقسامية.

أولا: مفاهيم حول القبيلة

رغم اتساع استخدام مفهوم القبيلة فقد اختلف الدارسون في تحديده فكثيرا ما كان يحدث الخلط بين القبيلة Tribu والاثنية Ethnie وعليه يمكننا التعرف على خلفيات ومنطلقاته التي أدت إلى تعددية المعاني باعتبار أن للعرب تراثا قبليا غنيا وان هذه الوحدة الاجتماعية المحورية تميزت بحضور قوي وفعال عبر مسيرة ومراحل تاريخ العرب الطويل.⁽¹⁾

لقد افرد اللغويون والدارسون لمصطلح القبيلة مؤلفات ووضعوا أبوابا ومحاور يقوا ابن منظور في لسان العرب إن الشعب أكبر من القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ويقال قبائل من الطير أي أصناف وكل صنف منها قبيلة والقبيلة هي الجماعة من قوم شتى كالروم والزنج والعرب وقد يكونون من نحو واحد.⁽²⁾

أما الموسوعة العربية الميسرة فقد عرفت القبيلة باعتبارها تتكون من مجموعة من الناس يتكلمون لهجة واحدة ويسكنون إقليما واحدا مشتركا يعتبرونه ملكا خاصا بهم. أما التعريف العربي للقبيلة فيتميز بالدقة فللعرب تقاليد عريقة في علم الأنساب : الجدم - الجمهور - الشعب - القبيلة - العمارة - البطن - الفخذ - العشيرة - الفصيلة - الرهط.⁽³⁾

أما في قاموس علم الاجتماع فإننا نجد ثلاثة مفاهيم:

1- هي نسق في التنظيم الاجتماعي يتضمن عدة جماعات محلية مثل القرى والبلديات والعشائر وتقطع القبيلة عادة إقليما معيناً ويكتنفها شعور قوي بالتضامن والوحدة يستند إلى مجموعة من العواطف الأولية.

2- هي تجمع كبير أو صغير من الناس يستغلون إقليما معيناً ويتحدثون اللغة نفسها وتجمعهم علاقات اجتماعية خاصة متجانسة ثقافيا .

3- هي وحدة متماسكة ترتبط بإقليم وتعتبر في نظر أعضائها ذات استقلالية سياسية .⁽⁴⁾

أما تعريف معجم علم الاجتماع فإنه يطابق بين مفهومي القبيلة والاثنية وينفي البعد القرابي . أن أهم دراسة علمية تناولت موضوع القبيلة هي دراسة ليفس ستراوس التي نشر نتائجها في كتابه الانثروبولوجيا 1963.⁽⁵⁾

أما باشلر فيعرف القبيلة بأنها شكل انقسامي للتنظيم الاجتماعي يتكون من أقسام قاعدية يمثل كل منها أسرة ممتدة في عمق ثلاثة أو أربعة أجيال وكل قسم قاعدي يلتحم تلقائيا مع قسم آخر كلما شعر بتهديد أو خطر وشيئا فشيء يمكن أن تتحد القبيلة بأسرها أو مجموعة قبائل في مجموعة مؤقتة لمواجهة عدو خارجي.⁽⁶⁾

ثانيا : القبيلة عند ابن خلدون

حسب ابن خلدون لا تتحدد القبيلة بكونها جماعة متفرعة عن جد أول كما لا تتحدد فقط بما يجمع بين أعضائها من روابط الدم . أما الإطار الحقيقي عند ابن خلدون فهو النسب في معناه الواسع والرمزي وما يمثله من أشكال التحالف والولاء والانتماء فابن خلدون يؤكد دور المكان أي الأرض الذي يشكل محور التحام الجماعة ومما يذكي الإحساس بالانصهار ضمن الجماعة القبلية ويعزز تلاحمها الداخلي الخطر الخارجي الذي قد يهدد لاستمرار وجودها سواء كان ناجما عن عصبية زاحفة من خارجها أو عن تدخل سلطة مركزية كما أن علاقات القرابة والتحالف الموجودة بين أعضاء القبيلة الواحدة تؤدي إلى إقامة الفوارق بين المجموعات القبلية التي كثيرا ما تتسبب في عمليات التنافس الحاد والصراع على الموارد ومصادر العيش وهذا ما دفع إلى إضفاء طابع الصراع الدائم والمستمر على المجتمع القبلي⁽⁷⁾.

ثالثا : القبيلة في الدراسات الاجتماعية في المغرب العربي :

يقوم المجتمع القبلي في بلاد المغرب في كثير من مضامينه ومظاهره على المساواة والعدالة مقارنة مع المجتمع المدني منها :

1- المساواة : بمعنى غياب التدرج والهرمية .

2 - المساواة : بمعنى غياب التدرج والهرمية .

3- التدين : بمعنى إن العصبية الدينية حاضرة وأساسية في تكوين القبيلة .

4- الحرية : أصبحت الجباية رمزا للتمييز في المجتمع القبلي بين القبيلة السيدة والقبيلة المسودة.

5- جاذبية الأصل : يمثل المغرب الأقصى والجزيرة العربية المرجعية الأساسية لانتساب القبائل المنتشرة في شمال إفريقيا ويتجسد الانتساب إلى شجرة النسب .

6- السلطة الوراثية : بمعنى احتكار بعض العائلات للسلطة داخل القبيلة

7- الجبرية القبلية : بمعنى التضامن القبلي والانصهار في الجماعة القبلية .⁽⁸⁾

يعد الإرث الكبير من الدراسات والتقارير والوثائق المنجزة خلال فترة الاستعمار لأقطار بلاد المغرب مادة مهمة لدراسة الواقع الاجتماعي بمختلف أبعاده من ذلك تغطيته لفترة طويلة ومنطقة جغرافية شاسعة وقد استطاع البحث الاستعماري أن يصوغ مفاهيم وأن يقدم تصورا متماسكا عن الريف والقبيلة في المغرب العربي وأهم ما فادنا به تلك للتسجيلات والإحصاءات والمونوغرافيات المنجزة حول الأرياف .

مع البدايات الأولى للبحث الكولونيالي كان حضور المادة القبلية بارزا خاصة في الجزائر والمغرب مع التركيز على القبائل البربرية مما يفضي للتساؤل حول أهداف ذلك التخصيص من قبل الباحثين الضباط والخلفيات التي قادتهم شملت أعمال المرحلة الأولى من هذه الدراسات المجموعات القبلية المستقرة مع دراسة البنية الاجتماعية القبلية أما الدراسات حول البنية الدينية والثقافية كانت تجيد عن الموضوعية لما هو جار في الواقع .

لقد أفاضت مجموعة من الأعمال النقدية في تحليل مواطن ضعف مرتكزات الإيديولوجية الانقسامية التي ميزت أعمال قرن من الكتابات الاستعمارية وبخاصة التقييم الذي بدأه بارك من 1850 إلى 1950 في مقالاته المشهورة بالحواليات والمعنونة مائة وخمس وعشرين سنة من علم الاجتماع الشمال الإفريقي وأتمه بمجموعة المقالات المختارة التي تضمنها كتاب الانتروبولوجيا والتاريخ .⁽⁹⁾

أما بعد الاستقلال ومنذ الستينيات اتخذت الدراسات الاجتماعية في المنطقة وجهة مغايرة تميزت بالمستجدات الآتية :

1- دخول علمي الاجتماع والاناسة مجال التدريس الجامعي .

2-ارتباط البحث الاجتماعي ببرامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية .

3-انتشار النظريات والأفكار التحررية وتطبيقها في مجال البحث السوسيولوجي .

4-ظهور العناصر المحلية والزعامات المغاربية بتوجهاتها الوطنية مما حدا بالمجهود البحثي إلى مجال النقد والتقييم .⁽¹⁰⁾

تفسر لنا سياسة الاندماج الوطني وبناء الدولة الفتية لمشروعيتها الجديدة غياب الدراسات والمناقشات المعمقة حول التركيب الاجتماعي للمجتمعات المغاربية إلا بما يلاءم الاتجاهات السياسية والفكرية المقبولة آنذاك . فقد اعتبر أي حديث وأي دراسة عن القبائل والمجموعات التقليدية موقفاً مناهضاً للمشروع التحديثي والإدماج الوطني فقد كان هناك صراع مع القبائل والزوايا فثم عزل قادتها وشيوخها فبورقية مثلاً في السنوات الأولى للاستقلال كان يتوجه إلى سكان المناطق القبلية في خطبه بعبارات ياعروش جلاص الهامة ورغبة الاشاوس⁽¹¹⁾

تمتاز وضعية بلاد المغرب بخصوصية تاريخية تختلف عن نظيرتها في المشرق والخليج العربيين وهنا يظهر دور الاستعمار الفرنسي في سياسة التفكيك وإعادة البناء بما يضمن انجاز مشروعه التوسعي المتعدد الوجوه وكذا إلى دور الدولة الوطنية من نخب مناضلة حملت مشروعاً تحريراً يستند إلى إرث فكري وسياسي وإصلاحي يرجع إلى القرن التاسع عشر وهو ما لم يتدعم وجوده في أغلب المناطق العربية .

هاتان الخصوصيتان مكنتا من قطع أشواط كبيرة اتجاه تفكيك البنى التقليدية وتحقيق الاندماج في المجتمعات المغاربية .⁽¹²⁾

أما الأبحاث الاجتماعية حول القبيلة في المغرب الأقصى فقد تعرضت إلى موضوع الهوية القبلية في المجتمع المغربي وعلى متابعة إشكالية القطيعة والتواصل أو الثابت والمتحول وقد ارتكزت على النقاط الآتية :

1-الدراسات الجهوية والمحلية إلى جانب الدراسات المقارنة .

2-معالجة موضوع التحولات والتغيرات الاجتماعية في إطار إشكالية القطيعة والتواصل .

3-حضور البعد التاريخي .

4-توجيه النقد للإرث الدراسي الاثنولوجي والانثروبولوجي .⁽¹³⁾

يمكننا الاطلاع على ذلك من خلال ما جاء في الدراسة التي أنجزتها رحمة بورقية⁽¹⁴⁾ حول غياب القبيلة كمؤسسة اجتماعية اقتصادية ليس مرده بالضرورة غيابها كإطار للانتماء وللهوية المحلية الأمر الذي جعل من القبيلة عنصرا من العناصر الثقافية والاجتماعية التي تشكل موضوع مساومة وهو ما يلتمس في توظيف العلاقات القبلية والقروية من خلال التنافس على السلطة وقت الانتخابات .

أما في الجزائر كانت هناك دراسات أنجزت خلال المرحلة الاستعمارية انطلقت من بعض المونوغرافيات حول منطقة القبائل وركزت على غيرها من المجموعات القبلية الأخرى وكان هذا التركيز ضمن إحدى استراتيجيات الاستعمار المتمثل في محاولة القضاء على مصادر الخطر في المناطق المعروفة بالتمرد من جهة وفي محاولة البحث عن حلفاء أو خلق انقسام في المجتمع في إطار سياسة فرق تسد وكذا توطين البدو . هذا ما يلاحظ على أبحاث هذه المرحلة فقد ركز ماسكراي⁽¹⁵⁾ على ثلاث مجموعات جزائرية لها تقاليد عريقة في الاستقرار هي القبائل والاوراس والميزاب متبعا للتغير المورفولوجي وحركية السكان وتشكل المدن .

أما في البدايات الأولى للاستقلال فقد تغيرت الاهتمامات ولم تعد القبيلة موضوعا بشير اهتمام الباحثين لقد أصبح المشهد مشدودا إلى مشكلات أخرى جديدة منها موضوع التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتحديد مشروع الثورة الزراعية والصناعية والثقافية لقد تركز البحث حول الأرض والفلاحة والنزوح الريفي والتصنيع والتسيير الذاتي وكان حضور البنيات الاجتماعية التقليدية في حصيلة البحث ضعيفا أو عرضيا يفسر هذا بعوامل نفسية إيديولوجية منها النفور من دراسة مواضيع الاستعمار ومقارباته واعتماد المقاربات المنهجية والنظرية المتناقضة للاستعمار والرأسمالية .

وعليه يبدو الفارق بين الجزائر والمغرب وتونس في أن القبيلة في المغرب والجزائر لا تزالان تحافظان على بعض اطر وجودها الاجتماعي والجغرافي بينما في تونس تحقق اندماج القبائل البربرية والعربية يشكل يكاد يكون كليا بحيث يصعب الحصول على تقسيمات قبلية أو اثنيه إلا بالمعنى الميكروسوسيولوجي أو بشكل جزئي جدا في بعض المناطق .⁽¹⁶⁾

الخاتمة:

يمثل توظيف شبكة العلاقات القروية في الأنشطة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية أهم مظاهر استمرارية الجماعات الأولية وحضورها الفاعل في المجتمع المحلي ذي التقاليد القبلية كما تمثل استراتيجيات العمل السياسي المحلي والجهوي مجالا خصبا لإحياء العلاقات القروية بمعانيها الضيقة والواسعة هذا الذي أدى ببعض المجموعات إلى الاستنجد بالهوية القبلية وعليه كان من الضروري متابعة هذه التحولات التي أصابت النسيج الاجتماعي في المكان وفي الزمان .

كانت الدولة التقليدية في بلاد المغرب باعتبارها دولة باترمونيالية تحتكر أدوات العنف السياسية والعسكرية وتمتلك موارد المجتمع الاقتصادية عبر النظام الضريبي كما كانت تعتمد على سلاسل تتوارث الحكم مما جعل علاقة المجتمع المحلي بهذه الدولة متوترة

كما لم يكن واردا في سياسات الاستعمار تفكيك البنى القبلية إلا في الحالات التي كانت تهدد فيها مصالحه بشكل مباشر لكن التحطيم العسكري كان يتغلب على التحطيم العسكري .

الاحالات والهوامش :

- 1- بوطالب محمد نجيب : سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 2002 ص 53 54 .
- 2- المرجع السابق .
- 3- ابن منظور : لسان العرب ج 15 بيروت دار صادر دت ص 541 .
- 4- محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة بيروت دار إحياء التراث العربي 1987 ينظر بوطالب محمد نجيب ص 54 .
- 5- محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع دار المعارف الجامعية القاهرة 1990 .
- 6- بوطالب محمد نجيب المرجع السابق ص 56 .
- 7- ابن خلدون عبدا لرحمن ابوزيد : المقدمة بيروت دار إحياء التراث العربي دت ص 130 .
- 8- نفسه ص 105 106 107 لتفاصيل أكثر ينظر الجابري محمد عابد : العقل السياسي العربي محدثاته وتجلياته نقد العقل العربي الدار البيضاء المركز الثقافي العربي 1990 ص 102 .
- 9- بوطالب محمد نجيب ص 65 .
- 10- الزين عبد الفتاح : السوسيولوجيا في المغرب من اعلان الحماية الفرنسية الى المرحلة الراهنة المستقبل العربي السنة 13 عدد 146 افريل 1991 ص 123 .
- 11- بوطالب محمد نجيب : المرجع السابق ص 67 .
- 12- نفسه
- 13- نفسه
- 14- نفسه
- 15- بورقية رحمة : الدولة والسلطة والمجتمع دراسة في التابث والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب بيروت دار الطليعة 1991
- 16- بوطالب محمد نجيب ص 70 .